

حرکة الابداع عند الدكتورة خالدة سعيد

اثر: دکتر عدنان طهماسبی
استادیار دانشکده ادبیات و علوم انسانی دانشگاه تهران
(از ص ۱۶۳ تا ۱۷۳)

چکیده:

تثوری قدمت و کمال (در شعر جاهلی) باعث گردید مسائلی خارج از حوزه ادب بر آن سایه افکند تا جائیکه پیشگامان شعر مدرن اظهار داشته‌اند برای اینکه شعر و ادب نفسی تازه کند و پایه عرصه تحولات جهانی شعر و ادبیات بگذارد و از واقعیت‌های فرهنگ و اوضاع اجتماعی امروز بدور نماند لازم است از قید و بندهای کهن رهایی یابد و در این باره "خالدة سعید" گفته است لازم است ابداع و نوآوری اساساً رهایی از قید و بند تقلید و سنت است، البته وی ابداع را حرکتی انسانی دانسته و بر تداوم آن به عنوان یک رهیافت اساسی تأکید دارد و بر این اساس آورده است که هر عمل ابداعی به معنای واقعی، آغاز و نوآوری است.

المفردات الاساسية: الابداع، حركة، التقليد، الزمن، الموروث.

يبدأ الكتاب انطلاقاً من هذه الأسئلة:

١- التساؤل حول دور النقد.

٢- التساؤل حول استقلالية النص الابداعي

٣- التساؤل حول استقلالية النص النقدي أو تبعيته للنص الابداعي

٤- التساؤل حول استقلالية المنهج النقدي ولاسيما ما يترتب على هذه الأسئلة

من اهمال للمناهج النفسية والتاريخية والاجتماعية. ومن المعروف أن هذه الأسئلة مترابطة كالاعوية المتصلة وتعود في نهاية المطاف "الى النقد التأويلي الذي يطغى على النتاج النقدي في العالم". (د: خالدة سعيد، ص ١)

من الطبيعي أن يظهر النقد بظهور النص اذلولاه لماتسنى للناقد ان يقوم و ينقد ويصدر آرائه، أضف الى ذلك دور نظرية المحاكاة والتعبير والخلق والانعكاس مما أضفى طابعاً جديداً لتقويم المادة الادبية و هناك ظواهر أدبية تفصح عن نفسها بسهولة اما أسئلة من لون ما الذي يميز العمل الادبي عن غيره و ما الذي يجعل العمل عملاً ادبياً، عندها يواجه الانسان صعوبات و مشكلات في الرد عليها او الكشف عن غوامض ما طراً عليها، انسياقاً من هذا تأتي الاجابة من ناقد الى ناقد متباينة و مختلفة و لعل أساس هذا يعود الى ما طرحه الدكتور شكري عزيز الماضي "في نظرية الادب" حسب ما ذهب اليه الدكتور يتمحور أساس المشكلة "حول الخصائص الخاصة للأدب و مصدرها و مهمتها." (د: شكري، عزيز الماضي، في نظرية الادب، ص ٩). فالأسئلة التي أوردتها الدكتورة خالدة سعيد ينم عن اطلاعها الواسع بالنسبة للموضوع اذ ترى أن:

١- هذه الأسئلة مترابطة و غير منفصلة.

٢- التأويل النقدي في المحصلة النهائية ردّ النص الابداعي الى مراجعه و مكوّناته

(النفسية و الثقافية الاجتماعية...).

٣- استقلالية النقد يجب أن تقوم من خلال الاستقبال و النقد لا من جهة الارسال

أو الانتاج.

٤- استقلالية النص تعني عدم تجاوزه الى مراجعه بما أنه يفضي على الانزياح.

٥- إن النص ينهض. بتميز عن مجموع مكوناته.

وحسب رأي الكاتبة أن مقومات الشعرية منذ أرسطو حتى الجرجاني و القرطاجني وصولاً الى أعلام النقد العالمي و العربي الحديث قد ترجمت بمصطلحات و تسميات من قبيل: الاحتمال، التخيل، الاستغراب، التعجب، الادهاش، الضدية، الفجوة، الانزياح، المفارقة، والفضائية، (د: خالدة سعيد، ص ٣). ولنشفع ما أوردته خالدة سعيد بما أورده زوجها أدونيس اذ يرى "من مهمات الشعر الجديد:

١- أن نرى في الكون ما تحجبه عنا الألفة و العادة.

٢- أن نكشف وجه العالم المخبوء.

٣- أن نكشف علائق خفية.

٤- أن نستعمل لغة ملائمة لكل هذا (أدونيس، زمن الشعر، ص ٩). هذا و ما أوردته في بداية كتابها دفعها لتقول: "لغة النص هي الشكل بمجموع ظواهره و إشارات، الشكل هو حامل الخصوصية داخل اللغة المشتركة، لابعنى "اللسان" و حسب، بل أيضاً كل منظومة رمزية أو مدونة اشارية بمعنى مألوف الأشكال و المَعَمَم من أساليب الخطاب. الشكل بهذا المعنى هو المقصود بتعبير "لغة في اللغة". (د: خالدة سعيد، ص ٤). وللمزيد راجع (إشكالية التواصل و سبله في مجتمعات متبانية، الفكر العربي العدد ٢٥، مقال محمد كشاش عن لغة الاشارة). فاذن فك اسرار و غوامض النص و استقباله من خلال المتلقي يتطلب مجهوداً متراكماً و معرفة بشرية هائلة حتى لاينجرف المرء وراء اهتمامه مبتعداً عن روح النص اذ يتحير الانسان أمام الكم المعرفي المتشعب في العلوم الجديدة التي استمدت حيوتها من روافد متداخلة فعسى ينتهي الناقد الى ما توسل اليه رولان بارث. في "موت المؤلف" و يبدو هذا

بارزاً في آثار الاسبقين عندما واجهوا هذا التحدي الجارف، و أحسب أن الدكتورة خالدة سعيد وزوجها أدونيس من المنظرين لقضية الحدائث في الشعر العربي اذ يبدو من خلال آثارهما أنهما قد ندرا كل ما عندهما لإرساء هذه القضية التي جنح اليها بكل الطاقات. و من جملة القضايا المكرسة هي حركية الابداع التي ترى خالدة سعيد "تباشيرها في التطلعات الأولى لانتزاع التعبير من أسر المطلق و النظر اليه كفاعلية تاريخية. فالنظر التقليدي الى التعبير الشعري، بخاصة يجعله لازمانياً أو لاتاريخياً (د: خالدة سعيد، ص ٦) و من المعروف أن الاسبقية و نموذج الكمال الذي صرح به القدماء منوهين بفضل اولئك الذين أنشدوا أشعارهم دليل على قوامه الشعر و تتويجه، تأسيساً عليه لا يقوى الشاعر أن يكون مبدعاً لانه محصور في قوالب جاهزة من قبل و الإشكالية الاساسية أنه مسجون و محبوس قبل أن يخلق و اذ لم يخضع للسلطة الابوية و يخرج عليها يلصق بأنواع التهم و يصبح كالجمل الاجرب الذي يجب أن يعتزل عن الآخرين و يا حبذا القضية تنتهي في هذا الحد. مع بالغ الأسف تتجاوز هذا المستوى و الويل كل الويل عندما تضيء الصفة اللازمانية للغة العربية طابع القداسة لتسحب على "المرحلة التي اعتبرها الاسلام جاهلية" (د: خالدة سعيد، ص ٦). و يبدو جلياً أن الانسان المعاصر يسعى لينفس عن مشكلاته التي تعصف به وبأبناء البشر فتجسد آلامه من خلال أدبه مما دفع بأدونيس ليقول: "من خصائص (الشعر الجديد) أنه يعبر عن قلق الانسان أدياً و أن شعر (الشاعر الجديد) "مركز إستقطاب لمشكلات كيانية يعانيتها في حضارته و أمته و في نفسه هو، بالذات" (أدونيس، زمن الشعر، ص ١٠). فيظهر أن أشعار الجاهليين التي عكف الكثير عليها ليقول أنها بريئة من الاعوجاج و من أهانها أهانني و من أصابها بأذى "أصابني و أنا على يقين لولا خوفهم من التكفير لقالوا أنها منزلة من السماء و بتأليها لأعود الان ثانية الى ما أوردته. خالدة سعيد و رواد الحدائث بشأن تجريد القدسية عن الشعر الجاهلي مما دفعها لترى ليس هناك مبرر في الطعن بالدكتور طه حسين لانه شكك بالشعر الجاهلي (د: خالدة سعيد،

ص ٧) و تقول أيضاً "فإن كل تطور يمس بما ارتبط بها من أشكال، يشكل صدمة و يثير ردود فعل عنيفة" (د: خالدة سعيد، ص ٧). و هناك من يفسر الاتجاهات الجديدة فى الأدب بأنها نابعة من النظرة اللادينية الى الامور و تطورت هذه الفكرة كما تقول خالدة سعيد "على أيدي أشخاص كفرح أنطوان و شبلي الشميل و قاسم أمين و طه حسين و لطفي السيد و عباس محمود العقاد و جميل صدقي الزهاوي و أحمد زكي أبو شادي و ابراهيم ناجي (د: خالدة سعيد، ص ٨). "و من النقاط المفصلية التي أوردتها الدكتورة خالدة سعيد" انتزاع التعبير من أسر المطلق هو "تحرير للتعبير" عند هذه القضية من منظورها تلتقي معظم القضايا التي طرحت تحت شعار الحداثة. (د: خالدة سعيد، ص ٨). و يقول أدونيس في هذا الصدد. "يمكننا القول أن الشعر الجديد نوع من المعرفة التي لها قوانينها الخاصة في معزل عن قوانين العلم. انه احساس شامل بحضورنا، و هو دعوة لوضع معنى الظواهر من جديد، موضع البحث و التساؤل. و هو لذلك يصدر عن حساسية ميتافيزيائية تحس الأشياء احساساً كشافياً. الشعر الجديد، من هذه الوجهة، هو ميتافيزياء الكيان الانساني." (أدونيس، زمن الشعر، ص ١٥)

الابداع حركة جدلية:

و من جملة القضايا التي تشير اليها خالدة سعيد هي الابداع التي ركزت عليها كثيراً حتى وصل الامر الى عنوان الكتاب لنقول: "يفترض الابداع بدئياً رفض التقليد... هذا الرفض يعني اعادة الاعتبار للابداعية الانسانية و النظر الى الابداع على أنه فاعلية أساسية. من هنا أن كل عمل ابداعي بالمعنى العميق و الحديث هو محاولة بداية. و الابداع انطلاقاً هو نتيجة تعارض و انقطاع بين الواقع القائم و طموح الذات الى واقع غير متحقق (د: خالدة سعيد، ص ٨) فحسب خالدة سعيد التكرار بل الاجترار لايعني تعميق التراث بل في الواقع ينخره من الداخل ليتهمش بسهولة و يتداعى و ينهار بأدنى اشارة. لذلك تندفع الدكتورة خالدة سعيد لتقول: "نستطرد هنا

لنقول إن المجددين بهذا المعنى هم الذين يهيئون للتراث الاستمرار و الحيوية، لا أولئك الذي يحنطونه بالتكرار و التقليد فيحكمون عليه بالعقم (د: خالدة سعيد، ص ١٠). لذلك لايجنح الشاعر الحدائوي لهذا اللون من الشعر الذي ينبع من عقد شخصية و ما الى ذلك فنرى أدونيس يقول عن هذا «لعل أهزل الآثار الشعرية، بالمقياس الجديد، هي غالباً الآثار التي لا تكشف الا عقد الشاعر أو ظروفه الاجتماعية الشخصية.» (أدونيس، زمن الشعر، ص ١١). و لذلك "انطلقت حداثة الشعر (الحر) في تجاربه الريادية الأولى، من هاجس المغايرة الشكلية" (د: حاتم الصكر، مرايا نرسييس، ص ٣٥). أضف الى ذلك تجربة الحداثة الشعرية التي تتجلى في «تجربة الانفتاح... من خلال حضور الآخر الانساني، أو واقعه...» (د: عبدالواسع الحميري، الذات الشاعرة، ص ٢٧).

الحداثة انتقال من الوصف الى الكشف و التجريب

الابداع من هذا المنظور معرفي، ليس بالمعنى الاستظهارى أو التصنيفي لأنه ليس نقلاً أو وصفاً لقائم، بل بمعنى الكشف و البحث (د: خالدة سعيد، ص ١٠) لذلك ترى أن "الوصف فعل محافظ، اعادة إنتاج لموجود مسبقاً، سواء أكان الموصوف شكلاً أم فعلاً أم قيمة. فالمبدع عندها يحتفظ بحق الحركة بعيداً في اتجاه الواقع المبدع و المسافة القائمة بين المتحقق و المبدع هي مسافة الحرية. (د: خالدة سعيد، ص ١١). تأسيساً على هذا تقول "النقل تأريخ ناقص. أما في الفن فلا بد من إبداع علاقة." (د: خالدة سعيد، ص ١٢) فيبد و طبيعياً حسب رأيها "لو أن أدونيس، مثلاً كتب مغامرة صقر قريش - على روعتها - ل جاءت مجرد تأريخ موزون. ففنية القصيدة تكمن في ابتداع حالة التداخل و الحوار بين صقر قريش التاريخي و شاعر عربي في القرن العشرين غارق في هواجس عصره." (د: خالدة سعيد، ص ١٢). فالشاعر المجدد و الحدائوي انسياقاً لما ذهبت اليه خالدة سعيد يراهن على المستقبل مستشرفاً فيه حياة نابضة مستمدة حيويتها من التراث الذي يدب فيه بحركية المجددين روح جديدة.

ويرى أدونيس أن "اللغة في الشعر العربي التقليدي، هي لغة وصف و تعبير، اما الشعر الجديد حسب أدونيس يطمح الى أن يؤسس لغة التساؤل و التغيير" (أدونيس زمن الشعر، ص ١٦-١٧). و من المؤكد أن أدونيس في قصيدته القناعية صقر قريش (عبدالرحمن الداخل) "يحذف ما يتصل ببطش الامويين أو استبدادهم..." (د: حاتم الصكر، مرابا نرسيس، ص ٧٣) اذ ما يهمله كان يتصل "بالمغامرة، والأمل، والثورة" (د: حاتم الصكر، نفس المصدر، ص ٧٣). و في هذا السياق نفهم ما نادى اليه الحداثيون من الدعوة "الى التخلي عن مفهومي "التعبيرية" و "الوظيفية" (عبدالقادر الفزالي، التجليات، ص ١٣٧). وللكشف و اثره في التجربة الحداثوية راجع "الصوفية و السورالية" اذ يؤكد أدونيس فيه على "الحقل المعرفي الذي أسست له" (أدونيس، الصوفية و السورالية، ص ٢٥). و مما لا ريب فيه أن رواد التجربة الحداثوية لا يقتصرون على اللغة الانسانية اذ يرون فيها انقياداً كما عبر عنها رولان بارث بشكل ما اذ يرى أن اللغة البشرية "لا خارج لها، إنها انغلاق" (بلقاسم خالد، أدونيس والخطاب الصوفي ص ٦٤) فجنح رواد الحداثية الى لغة الكشف المستمدة من الرؤيا و الحلم.

عصر النهضة (والصلة بين النصوص القديمة و الحديثة):

إن المتتبع يرى أن إلقاء الضوء على أدب عصر النهضة مسألة عسيرة لهذا تخرُج علينا الدكتورة خالدة سعيد حول هذه الفترة الراححة تحت الظل العثماني من جانب و الاستعمار الأوروبي الجديد من جانب آخر بفكرة ثابتة لها لتقول: يتربط التعبير الأدبي عضوياً ببيئته، بأوضاعها و قيمها و علائقها و تناقضاتها، فإنه، بدوره، ينتج قيماً و أنماطاً جديدة للعلاقات. و قد لعب الأدب العربي، ولاسيما الشعر، منذ عصر النهضة حتى اليوم، دوراً مهماً في توليد قيم و تطلعات جديدة، و في اللاحاح على بعض الأبعاد و المحاور دون غيرها من أبعاد الشخصية العربية أو محاور الحضارة" (د: خالدة سعيد، ص ١٥). إن بذور الصدمة التي شهدتها الثقافة العربية بعد حملة نابليون على

مصر دفعت البعض ليحكم على ما جاء من جرّاء هذه الحملة هو معاداة للتراث و البعض الآخر انبرى ليقول ما جاء ووا به هؤلاء هو ما يهمننا و علينا أن نتمسك به و نترك دين آباءنا و هناك من قيّم القضية بشكل موضوعي و أكد على الانتقاء. و المقال هذا لا يسمح بالدخول في التفاصيل و هناك مراجع كثيرة في هذا المجال اذكر تمثيلاً لا حصراً: "أدب عصر النهضة" للدكتور شفيق البقاعي. و "الاتجاهات و الحركات في الشعر العربي الحديث" للدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي و "شعرنا الحديث الى أين" لغالي شكري و "لغة الشعر العربي الحديث" و "الالتزام في الشعر العربي" للدكتور أحمد ابو حاقه. و من الطبيعي للمرء عندما يواجه تحديات أن يرد عليها بطريقته الخاصة انطلاقاً من هذا تقول خالدة سعيد "ان أي شخصية ثقافية تواجه تحديات مصيرية، ترد على التحدي عن طريق الإلحاح على مكوناتها الأساسية. هكذا فإن الرد على التحدي العنصري التركي، و التحدي الحضاري الغربي و على وضعية التجزئة و التخلف استوجب الإلحاح على العنصرين البارزين في الثقافة العربية: الدين و اللغة. و قد رجح أحدهما في هذا الاقليم أو ذاك، بحسب الظروف الموضوعية ففي الجزيرة العربية كان الرد دينياً تقشفاً طهراً، و في المغرب كان عودة الى الوحدات الجماعية الدينية (الزوايا السنوسية). و في لبنان حيث كانت المدارس تملك حرية تعليم العربية بدل التركية أمكنت العودة الى النصوص العربية القديمة مما أسهم في انتاج ايدولوجية عربية عارض بها المثقفون العنصرية التركية. و في مصر التي استقلت عن السلطة العثمانية و تحررت من المماليك أسهمت العودة الى النصوص العباسية في ابراز الملامح الخاصة بالثقافة العربية. هكذا كانت حركة التحرر و التمايز القومي، حركة عودة و احياء لإسلام عصور السيادة أو احياء للأدب الذي عبر عنها" (د: خالدة سعيد، ١٥-١٦).

الانتماء الى المكان:

من جملة الامور التي تميز الانسان هو الانتماء الى المكان و يختلف النظر اليه من شخص الى آخر اذ في الحقيقة تنتمي هذه الظاهرة الى عوامل نفسية و حضارية. اذن الموقف من المكان و الانتماء التاريخي له يعد من أهم القضايا التي كرس شعراء عصر النهضة وقتهم و وجودهم لها. و ترسم لنا الدكتورة خالدة سعيد دور الانتماء الى المكان من خلال ما توصلت اليه بأن تطور الموقف إزاء الطبيعة بدأ:
مع شعراء النهضة.

- الطبيعة المثالية التي تجلت على يد شعراء المهجر.

- الطبيعة الذاتية مع شعراء ما بين الحربين (الرومنطيقية).

في المرحلة الاولى لن يخرج الشعراء حسب خالدة سعيد (ص ٢٥)

عن الموروث العباسي المنعدم الخصوصية و الشخصية. اما الطبيعة المثالية فقد اتسمت بالدعوة الى الحرية و رفض سلطان الصيغ الماضوية، و ظهور النزعات التطورية. (د: خالدة سعيد، ص ٢٧). و يمكن أن نلخص العودة هذه من خلال ما توصلت اليه خالدة سعيد كما يلي:

١- في هذه العودة تحل المحاولة الشخصية محل المحاكاة.

٢- الانتقال من طور الانتماء التاريخي الى طور الانتماء المكاني حيث يحدد

العربي هويته في ضوء علاقة الجماعة بالمكان.

٣- غروب الشاعر الذي يتكلم بما يعرف و غروب الشعر المرتبط بالمؤسسات

الرسمية. و ظهور الشاعر الذي يؤمن بأنه يلعب دور النبي.

٤- الطبيعة هو انتهاك لكل ما يقيد حرية الانسان، و كان جبران أبرز الذين عبروا

عن هذا المعنى.

٥- تميز شعر الطبيعة هذه بنزعة صوفية شرقية المنابع سيناوية - أفلوطينية قريبة

من آثار المسيحية.

٦- أصفاء طابع كوني للشعر.

٧- تتويج الشعر بالرمز و الاشارة.

فحسب خالدة سعيد الشعر الصوفي يدعو "الى الاستبطان والتأمل في الطبيعة التماساً للحقيقة، و من ملامح هذه الصوفية القول بوحدة الكون و رفض الثنائيات و التناقضات بين الخير والشر، بين الحياة و الموت، بين الإله و الانسان" (د: خالدة سعيد، ص ٣٥).

و يضم الكاتب الحديث عن تجربة جبران خليل جبران و تحليلاً عن شعر أنسي الحاج في "لن" و في ايقاع الشوق و التجاذب طرحت لنا الدكتورة قصيدة أدونيس "هذا هو أسمى" و في الهوية المتحركة تحدثت عن أغاني مهيار الدمشقي و دارالحديث عن السياب في الحركة و الدائرة.

في نهاية المطاف

و أخيراً لي أن أؤكد على غياب أبحاث كهذه في جامعتنا رغم أن الكتاب يعود الى اواخر السبعينيات، هذا دليل بارز على أننا نفتقر الى أسلوب حديث نعتمد عليه في دراستنا اللغوية و الادبية لنهجر الطريقة المتمثلة في فهم النصوص على الفهم المعجمي أمل أن نفتح على الادب الرفيع بطريقة علمية موضوعية.

المصادر:

- ١- أدونيس، زمن الشعر، دارالفكر، ط، خامسة، عام ١٩٨٦.
- ٢- أدونيس، الصوفية و السورالية، دارالساقى، ط ثانية، عام ١٩٩٥.
- ٣- بلقاسم خالد، أدونيس و الخطاب الصوفي، الافق الادونيسي، مجلة فصول، المجلد السادس عشر، العدد الثاني، خريف ١٩٩٧.
- ٤- دكتور خالدة سعيد، حركية الابداع (دراسات في الادب العربي الحديث)، دارالفكر، ط ثالثة، عام ١٩٨٦.
- ٥- دكتور حاتم الصكر، مرايانرسييس، المؤسسة الجامعية للدراسات ط، اولى عام ١٩٩٩.

- ٦- دكتور شكري عزيز الماضي، في نظرية الادب، دارالحدائث، ط اولي، عام ١٩٨٦.
- ٧- دكتور عبدالواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحدائث العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط اولي، عام ١٩٩٩.
- ٨- عبدالقادر الغزالي، التجليات او الخلق المستمر، الافق الادونيسي مجلة فصول، المجلد السادس عشر، العدد الثاني، خريف ١٩٩٧.
- ٩- مجلة الفكر العربي، اشكالية التواصل و سبله في مجتمعات متبانية، مقال عن لغة الاشارة للدكتور محمد كشاش، العدد ٢٥، عام ١٩٩٩.

